التواصل اللساني في التراث العربي

-دراسة في دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني-

أ. وليد بوعديلة
جامعة سكيكدة

تمهيد:

نقرأ كتاب "دلائل الإعجاز" لصاحبه عبد القاهر الجرجاني[1]، لنحاول الإجابة عن سؤال أساس، طالما طُرِحَ في النقاشات العلمية في الساحة الثقافية (اللّغوية) العربية. هذا السؤال يقف بنا عند أصول الخطاب في تراثنا ليسائله مساءلة لسانية-تواصلية حديثة، فهل هناك مظاهر تفكير داخل البحث اللّغوي التراثي يمكن أن تفسّر نظرية جاكسون؟ لكي نكون أكثر منهجية. و لكي يكون بحثنا أكثر عمقًا نسعى للبحث في "الصلة" و هي التي تولّد الوظيفة الإنتباهية حيث يتوجّه النظر نحو "قناة التخاطب" للتأكّد من أنّ عملية الإبلاغ/التواصل تتم في ظروف حسنة.

و لكي يتحقّق غرض هذا العرض، يجدر بنا أن نتساءل: هل ضمّ كتاب "الدلائل" ما يمكن أن يقارب مفاهيم التواصل اللساني؟ يمكن أن نجيب عن هذا التساؤل بالبحث في أمور ثلاث، هي:

شروط التواصل.

دور الخطاب في ربط المبدع بالمتلقي.

شروط التلقي.

شروط التواصل:

في دلائل الإعجاز يجد القارئ بعض الفقرات التي تحيل على مفاهيم و معاني قد تفسّر له –إن تعمّق فيها– بعضًا ممن شروط التواصل و من تلك الفقرات نذكر ما يلي، مع تقديم الشرط (شرط التواصل) ثم ذكر العبارة كما وردت في الدلائل:

1) يتحقق التواصل بوجود "رسالة" يقدّمها "مرسل" إلى "مرسل إليه": يقول الجرجاني: "و أن يسائلك السائل عن جهة يلقي بها الخصم في آية من كتب الله تعالى، أو غير ذلك، فلا ينصرف عنك بمقنع. و أن يكون غاية ما لصاحبك منك أن تحيله على نفسه، و تقول: قد نظرت فرأيت فضلاً و مزيّة و صادفت لذلك أريحيّة، فأنظر لتعرف كما عرفت و راجع نفسك، و اسبر و ذق لتجد مثل الذي وجدت، فإن عرفت فذلك، و إلاّ فبينكما التناكر، تنسبه إلى سوء التأمّل، و ينسبك إلى فساد في التخيّل"[2] يحدث هنا التواصل بين اثنين، الأوّل يدافع عن الإعجاز في القرآن، و الثاني يبحث عن الحجّة التي تؤكّد ذلك الإعجاز، إنّ الفقرة السابقة واردة في سياق الحديث عن "الكلام في الإعجاز" و ليحقّق المرسل غايته، يدعوه الجرجاني إلى أن يحيل المرسل إليه/الصاحب على نفسه، ثمّ إنّه يحرص على أن يبيّن له نتيجة هذه "الإحالة"، و هي كشف "الفضل، المزيّة، و الأريحيّة"؛ فضل الخطاب القرآني، و مزيّة أساليبه و تراكيبه، و أريحية السنفس أثناء قراءته، و بالإضافة إلى ذلك فالمخاطَب/الصاحب: "تجد مثل الذي وجدتُ". بمعنى اكتشاف سرّ الإعجاز إذا لم يحدث هذا فإنّ مآل هذه العملية التواصلية سيكون "التناكر" فيكون المرسل يتميّز بـ: "سوء التأمّل" و المرسل أليه يتخذ صفة "فساد التخيّل". في حين تحافظ الرسالة على طبيعتها/الإعجاز.

2) صفة المرسِل: "و أن يكون المتكلّم في ذلك (النطق) جهير الصوت جاري اللّسان، لا تعترضه لكنّه، و لا تقف به حبسة، و أن يستعمل اللفظ الغريب و الكلمة

الوحشية، إن استظهر للأمر، و بالغ في النظر، فأن لا يلحن فيرفع في موضع النصب، أو يخطئ فيجيء باللّقطة على غير ما هي عليه في الوضع اللغوي"[3]. من هنا نجد أنّه يحسن بالمتكلّم/المرسِل أن يكون حسن الصوت. حيث لا تعرقل حديثه -أثناء التواصل- لُكنة أو حسبة، كما أنّه مطالب بأن لا يدخل "اللّحن" في رسالته كي تصل على أكمل وجه، و يتحقّق هذا بالالتزام بالقواعد اللّغوية/الوضع اللّغوي. فنطق الرسالة و طبيعتها اللّغوية يساهمان في إنجاح العملية التواصلية، و يمكن أن نرسم هذه العلاقة في الشكل التالي:

المرسل ←الرسالة = نطق سليم + التزام بالوضع اللّغوي ←نجاح العملية التواصلية.

المرسل ← الرسالة = النطق به لُكنةً + خروج عن الوضع اللّغوي ←فشل العملية التواصلية.

3) معرفة خصوصيات اللّغة التي يتم بها التواصل: يقول الجرجاني: "و أن الذي قاله العلماء و البلغاء في صفتها و الإخبار عنها رموزٌ لا يفهمها إلاّ من هو في مثل حالهم من لطف الطبع. و من هو مهيّأ لفهم تلك الإشارات، حتى كأنّ تلك الطباع اللطيفة، و تلك القرائح و الأذهان، قد تواضعت فيما بينها على ما سبيله سبيل الترجمة يتواطأ عليها قوم فلا تعدّ وهم، و لا يعرفها من ليس منهم"[4].

إنّ محاولة المرسِل التواضع مع المرسَل إليه يختلف عنه في اللّغة تقتضي معرفته بـ: "حال" القوم/المجتمع الذين ينتمي إليهم المرسل إليه، لأنّ كلّ قوم يتواضعون على "الطباع اللطيفة" التي تميّز لسانهم عن غيره من الألسنة. لهذا لا يمكن للغريب عنهم أن يتواصل معهم، من دون معرفة رموز و إشارات لغتهم، و هي رموز و إشارات غي معروفة لمن لا ينتمي لثقافتهم/حضارتهم. و كأنّ الجرجاني هنا يضع المرسل في موقف حرج باعتباره يجعل "الرموز" ذات علاقة وطيدة بـ "حال القوم". فلا يمكن أن

يتواصل المرسِل مع هؤلاء القوم/المخاطَب قبل أن يعرف "الرموز" ثم يتقن استعمالها. و في هذا عودة إلى السياق الحضاري للخطاب.

4) تختلف طبيعة التواصل باختلاف المعنى، و المعنى أثناء التخاطب بين متخاطبين يختلف باختلاف صيغة السؤال، يقول الجرجاني في الفصل الخاص بالتقديم و التأخير: "هذا كلام في النكرة إذا قدمت على الفعل، أو قدّم الفعل عليها، إذا قلت: "أجاءك رجل"، فأنت تريد أن تسأله: هل كان مجيء من أحد من الرجال إليه؟" فإن قدّمت الاسم فقلت: "أرجل جاءك؟" فأنت تسأله عن جنس من جاءه أرجل هو أم امرأة؟ و يكون هذا منك إذا كنت علمت أنّه قد أتاه آت. و لكنّك لم تعلم جنس ذلك الآتي، فسبيلُك في ذلك سبيلك إذا أردت أن تعرف عين الآتي فقلت: "أزيدٌ جاءك أم عمرو؟"..."[5]. و هكذا يحدث التواصل بين المرسل و المرسل إليه، انطلاقاً من طبيعة الرسالة الموجودة بينهما، فيكون الحديث عن "الرجل" و "المجيء"، فإنْ تقدّم الفعل/المجيء، فالحديث ينطلق من "الرجل" إن جاء أمّ لا.

5) قد يحدث أن يكون الصمت وسيلة من وسائل التواصل، يقول الجرجاني في سياق "القول في الحذف": "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسّحر، فإنّك ترى به ترك الذكر، أفصحَ من الذكر، و الصمتُ عن الإفادة، أزيدُ للإفادة، و تجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، و أتمّ ما تكون بياناً إذا لم تبن..."[6]. هنا تتجلّى لنا تلك الجدلية بين الصمت و الكلام في العملية التواصلية، ليصبح بالإمكان تحقيق الوجود الإبلاغي بين المتكلّم و السامع عبر هذه العلاقات:

أفصح من الرسالة/الصمت

الصمت/ترك الذكر ← الكلام/الذكر ⇐ مرسل ← مرسل إليه.

كمال النطق ← عدم النطق/إذا لم تنطق.

عملية التواصل

قمّة البيان ——— عظم البيان/إذا لم تنطق.

6) إذا أراد أحد المتخاطبين أن يتحدّى "الآخر" فيجب أن يكون على معرفة بالشيء الذي يريد أن يتحدّى به. كما لا يكون المخاطَب في موقف العاجز إلاّ إن لم يستطع الضفر بما سعى إليه، يقول الجرجاني: "لا يصحّ وصف الإنسان بأنّه قد عجز عن شيء حتى يريد ذلك الشيء و يقصد إليه ثم لا يتأتى له. و ليس يتصور أن يقصد إلى شيء لا يعلمه، و أن تكون منه إرادة لأمر لم يعلمه في جملة و لا تفصيل"[7]. و في ذلك بحث عميق في مسألة نفسية-لسانية من الجرجاني.

7) يتحقق التفاضل بين كلام و كلام -أثناء التواصل- عبر شروط: "الفصاحة" و "إعراب الكلام" و "عدم اللحن"، يقول الجرجاني: "و أظهر شيء عندهم في معنى الفصاحة تقويم الإعراب، و التحفّظ من اللحن، لم يشكوا أنه ينبغي أن يعتدّ به في جملة المزايا التي يفاضل بها بين كلام و كلام في الفصاحة"[8]. و يضيف: "إنّا نعتبر في شأننا هذا فضيلة تجب لأحد الكلامين على الآخر من بعد أن يكونا قد برئا من اللّحن، و سلما في ألفاظهما من الخطأ"[9]. و يمكن أن نقف هذه الفقرة عند التشكيل التالي:

المفاضلة بين الخطابات ← تقويم الإعراب
المفاضلة بين الخطابات ← الفصاحة
المفاضلة بين الخطابات ← التحفّظ على اللحن

و لأنّ الجرجاني شعر بغموض مفهوم الفصاحة في ذهن القارئ فقد أضاف: "و كنّا قد اجتمعنا على أن الفصاحة فيما نحن فيه عبارة عن مزيّة هي بالمتكلّم البتة"[10]. ثم: "و إن كانوا قد جعلوا الفصاحة في ظاهر الاستعمال من صفة اللفظ، فإنهم لم يجعلوها وصفًا له في نفسه، و من حيث هو صدى صوت و نطق لسان، و لكنّهم جعلوها

عبارة عن مزيّة أفادها المتكلّم، و لما لم تزد إفادته في التلفّظ شيئًا. لم يبق إلاّ أن تكون عبارة عن مزيّة في المعنى"[11] و نفهم من هذا أنّ "الفصاحة" خاصّية تميّز المتكلم بالدرجة الأولى. بمعنى المتكلّم/الفصيح. و نحلّل الفقرة السابقة لتزداد عملية الفهم أكثر على النحو التالي:

الفصاحة ← المتكلم/المخاطب.

الوصف: في اللّفظ المزيّة: في المعنى

ثم إن الجرجاني لا يقف عند هذا الحدّ، لكن يعمّق رؤيته و يحلّلها، يقول: "و جملة الأمر أنّا لا نوجب الفصاحة للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه، و لكنّا نوجبها لها موصولة بغيرها، و معلّقًا معناها بمعنى ما يليها"[12]. إنّ اللّفظة منعزلة عن السياق أو التركيب (أين تدخل في علاقات مع غيرها) لا تحقّق صفة "الفصاحة"، لكن يجب أن يكون هناك نوع الانسجام/التواصل بين بُنى الكلام، إضافة إلى ارتباط/تعلّق المعاني التي تحملها اللّفظة بمعاني اللّفظة المجاورة لها.

8) لا يمكن أن يتحقق التواصل إذا لم يكن المخاطِب يقصد بعض المعاني التي يريد أن يوصلها للسامع، يقول الجرجاني: "كيف يتصوّر وقوع قصد منك إلى معنى كلمة من دون أن تريد تعليقها بمعنى كلمة أخرى، و معنى القصد إلى معاني الكلم أن تعلم السامع بها شيئًا لا يعلمه، و معلوم أنّك أيها المتكلّم لست تقصد أن تعلم السامع معاني الكلم المفردة التي تكلّمه بها..."[13]. و في ذلك جمع بين المقصد به و انسجام بناء النص الواحد.

يمكن أن يتواصل المتكلّم مع السامع بوجود شرط "القصد"؛ قصد توصيل المعنى الذي يجهله الشخص المقصود بالخطاب/المتلقي. على أن لا يُحيل هذا الأمر القارئ على "المعاني المفردة للكلم"، و إنّما هي المعاني الناتجة عن علاقات الترابط و الانسجام بين

الألفاظ في البناء العام/النظم. و هنا إشارة سابقة إلى مفهوم وحدة البناء "الوحدة العضوية".

9) خلف كلّ عملية تواصلية توجد محاولة لـ "معرفة الخبر" يقول الجرجاني: "إن الناس إنّما يكلّم بعضهم بعضًا ليعرف السامع غرض المتكلّم و مقصوده. فينبغي أن ينظر إلى مقصود المخبِر من خبره و ما هو؟ أهو أن يُعلم السامع وجود المُخبَر به من المُخبَر عنه؟ أم أن يعلمه إثبات المعنى المُخبَر به للمُخبَر عنه؟..."[14]. و نشكّل هذه الفقرة هكذا:

المتكلّم ← الرسالة (غرض الخبر) ← السامع.

10) لكي يتحقّق التواصل يحرص الجرجاني على أن تكون الرسالة واضحة غير غامضة، يقول: "و اعلم أن لم تضف العبارة، و لم يقصِّر اللفظ، و لم يتعلق الكلام في هذا الباب (باب اللّفظ و النّظم) إلا لأنّه قد تناهى في الغموض و الخفاء إلى أقصى الغايات"[15]. و نشكّل هذا المعنى هكذا:

الغموض/انطلاق الكلام = انغلاق الرسالة ⟸ خلل في العملية التواصلية.

11) ينظم الجرجاني إلى موقع الخطاب و أحوال المتخاطبين ليكشف لنا شرطًا آخر من شروط نجاح العملية التواصلية، فإن كان المخاطَب لا يجهل أمر الخطاب لكن المخاطِب يرد أن ينبهه لمضمون الخطاب/الرسالة، فالكلام تستعمل فيه "إنّما". يقول الجرجاني: "اعلم أن موضوع إنّما، على أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطَب و لا يدفع صحّته. أو لما يترل هذه المترلة، تفسير ذلك أنّك تقول للرجل: إنّما هو أخوك. و إنّما هو صاحبك القديم، لا تقوله لمن يجهل ذلك و يدفع صحته، و لكن لمن يعلمه و يقرُّ به، إلاّ أنّك تريد أن تنبهه للذي يجب عليه من حقّ الأخ و حرمة الصاحب"[16]. أمّا إذا كان المخاطَب ينكر و يشك في أمر الخطاب. فيستعمل المخاطِب/المتكلّم النفي و الإثبات، يقول الجرجاني: "أمّا بالنفي و الإثبات نحو: "ما هذا إلاّ كذا. و إن هو إلاّ كذا". فيكون الأمر ينكره المخاطَب و يشك فيه، فإذا قلت: ما هو إلاّ مصيب، أو: ما

هو إلاّ مخطئ، قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلته. فيتفاعل هنا النحو و المنطق و البلاغة".

دور الخطاب في ربط المبدع بالمتلقي:

بعد أن حاولنا فيما سبق الوقوف عند بعض الفقرات التي ضمّنها الجرجاني أراءه التي أمكننا اعتبارها من شروط التواصل. نبدأ الآن رحلة البحث عن مظاهر للحديث عن دور الخطاب في ربط المبدع بالمتلقي من خلال "دلائل الإعجاز". لأنه كتاب يترع منزعًا بلاغيا يهتم بالإبداع و شروطه.

من خلال قراءتنا –التي أردناها قدر المستطاع أن تكون عميقة– لكتاب الجرجاني، توصّلنا إلى استثمار بعض الفقرات في سياق حديثنا عن الفكرة المذكورة سالفًا، و هي فقرات تبيّن نظرة الجرجاني للتأليف من حيث خصوصياته الشكليّة–المعنوية التي تجذب المتلقي نحو النصّ و من ثمة نحو مبدعه، لأنّ طريقة النظم تحيل على اقتدار الناظم إن أجاد النظم، كما تحيل على ضعف الناظم إن لم يتقن نظمه. و من هنا فمن مظاهر التفكير في الدور الذي يلعبه الخطاب لربط المبدع بالمتلقي نذكر:

1– المتلقي أثناء تواصله مع المبدع فهو يتواصل مع معانيه، و المعاني هي أساس الخطاب/الرسالة عند الجرجاني، فالخطاب ليس ذلك الكلام الذي يضمّ أوضاعًا لغوية، لكنّه النّظم (معاني الكلم). يقول الجرجاني: "اعلم أنّا إذا أضفنا الشعر. أو غير الشعر من ضروب الكلام إلى قائله. لم تكن إضافتنا له من حيث هو كلم و أوضاع لغة، و لكن من حيث توخّي فيها النّظم الذي بيّنا أنه عبارة عن توخّي معاني النحو في معاني الكلم"[17]. و يضيف: "فإن زعمت أنّك جعلته قائلاً له من حيث أنّه نطق بالكلم، و سمعت ألفاظها من فيه على النسق المخصوص، فاجعل راوي الشعر قائلاً له. فإنّه ينطق بها و يخرجها من فيه على الهيئة و الصورة التي نطق بها الشاعر"[18]. إن المتلقي يرتبط لا بنطق المبدع، لكن بمعانيه، لذا كان الخطاب بكل ما يحمله من دلالات ظاهرة و خفية وسيلةً لإدخال المتلقي إلى عالم المبدع، و من هنا لم يكن راوي الشعر هو قائله،

لأنّه لا يقدر على اخراج الشعر/الرسالة بالصورة ذاتها التي يخرجها عليه صاحبه/الشاعر.

2- لاستقامة التأليف الدور البارز في جذب المتلقّي نحو الإبداع/رسالة المبدع. يقول الجرجاني: "إذا كان النظم سويًّا و التأليف مستقيمًا، كان وصول المعنى إلى قلبك، تلوَ وصول اللّفظ إلى سمعك و إذا كان على خلاف ما ينبغي، وصل اللّفظ إلى السمع و بقيت في المعنى تطلبه و تتعب فيه، و إذ أفرط الأمر في ذلك صار إلى التعقيد الذي قالوا إنّه يستهلك المعنى"[19]. كلّما توفر الخطاب على "استواء نظمه" و "استقامة تأليفه" تحقّق له فعل "ربط" المتلقي، و نشكّل هذا الموقف في الشكل التالي:

طبيعة النّظم/التأليف	موقف المتلقي/السامع
الاستواء + الاستقامة ←	وصول اللّفظ إلى السمع + وصول المعنى إلى القلب
لا استواء + لا استقامة ←	وصول اللّفظ إلى السمع + عدم وصول المعنى إلى القلب

3- يدعو الجرجاني إلى حسن استعمال "المجاز" في النص/الخطاب، بمعنى الوضع المناسب للمجاز في محلّه من السياق، يقول: "ألا ترى إلى قوله: "و صاعقة من نَصْلة ينكفي بها على أرؤسِ الأقرانِ خمس سحائب". عَنَى بخمس السحائب أنامله، و لكنّه لم يأتِ بهذه الاستعارة دفعة، و لم يرمها إليك بغتة بل ذكر ما ينبئ عنها، و يستدلّ به عليها..."[20]. فالخطاب لم يصدم القارئ بالجمالية/التخييل دفعة واحدة، لكنّه مهّد له بمجموعة من التمهيدات/التنبيئات. فذكر "الصاعقة"، ثمّ بين أنّها من "نصل السيف" ثم إنّها واقعة على "أرؤس الأقران"، و ختم بـ: "خمس". و هي عدد أنامل اليد، فاتّضح "الغرض"، أو المعنى الكلّي من وراء اللّجوء إلى المجاز/الاستعارة.

4- إن المتلقي يكون أكثر ارتباطًا بالمبدع. إذا لجأ هذا الأخير إلى توظيف "التلميح". يقول الجرجاني: "و كما أن الصفة إذا لم تأتك مصرِّحًا بذكرها مكشوفًا عن وجهها. و لكن مدلولاً عليها بغيرها، كان ذلك أفخم لشأنها و ألطف لمكانها، كذلك إثباتك الصفة للشيء ثبتها له إذا لم تقله إلى السامع صريحًا. و جئت إليه من جانب التعريض و الكناية و الرمز و الإشارة، كان له من الفضل و المزيّة و من احسن و الرونق ما لا يقلّ قليله و لا يجهل موضع الفضيلة فيه"[21]. و نشكل هذه الفكرة هكذا:

المرسل ← الرسالة (الصفة) ← عدم التصريح/الكشف ← فخامة الشأن

لطافة المكان ← المرسل إليه

المتكلّم.

الخطاب = التعريض + الكناية + الرمز + الإشارة.

الحكم الفضيلة + المزيّة

المستمع ← "لا يجهل موضع الفضيلة فيه" ⇐

الحسن + الرونق

5) يجب أن يكون الخطاب صحيح البناء، و ذلك يتحسّد عبر معرفة النحو بالدرجة الأولى، يقول الجرجاني: "فلا ترى آلاما قد وصف بصفة نظم، أو فساده، أو وصف بمزيّة و فضل فيه إلاّ و أنت تجد مرجع تلك الصحّة و ذلك الفساد و تلك المزيّة، و ذلك الفضل إلى معاني النحو و أحكامه"[22]. و من هنا نلحظ أن وجود "الصحّة"، أو "الفساد"، يتعلّق بوجود معاني النحو أو غيابها، و المتلقي ينفرد من "الفساد"، و يبحث عن "الصّحة" داخل الخطاب، فكلّما سعى المبدع إلى تحقيق "الصّحة"، أو "الفساد"، يتعلّق بوجود معاني النحو أو غيابها، و المتلقي ينفرد من

"الفساد"، و يبحث عن "الصحة" داخل الخطاب، فكلّما سعى المبدع إلى تحقيق "الصّحة"، و تغييب "الفساد" كلّما استطاع جذب المتلقي إلى خطابه/إبداعه.

6) إن المتلقي يقرأ عمق الخطاب أيّ إشاراته و مدلولاته المخفية تحت بنيته السطحية الظاهرة، يقول الجرجاني: "و لم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة و البلاغة و البيان و البراعة، و في بيان المغزى من هذه العبارات و تفسير المراد بها، فأجد بعض ذلك كالرموز/الإيماء و الإشارة في خفاء، و بعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليُطلب، و موضع الدفين ليبحث عنه فيخرجه[23]".

إنّ الخطأ يرغم المتلقي على البحث في "الرّمز" و "الإيماء" و "الإشارة". فيطلب "المختبئ" من المعاني، و يخرج "الدفين" من الدلالات.

7) يتحدّث عبد القاهر الجرجاني عمّا يمكن أن نطلق عليه "جمالية النص". يقول: "إذا رأيتهم يجعلون الألفاظ زينة المعاني و حليّة عليها، و يجعلون المعاني كالجواري و الألفاظ كالمعارض لها، و كالوشي للمخبّر، و اللّباس الفاخر و الكسوة الرائعة..."[24] و يضيف: "يضعون كلامًا قد يفخّمون به أمر اللّفظ، و يجعلون المعنى أعطاك المتكلّم أغراضه فيه من طريق معنى المعنى، فكنّى و عرّض و مثّل و استعار، ثم أحسن في ذلك كلّه، و أصاب و وضع كلّ شيء منه في موضعهن و أصاب به شاكلته... و أن المعرض و ما في معناه ليس هو اللّفظ المنطوق به، و لكن معنى اللّفظ الذي دللت به على المعنى الثاني"[25]. و هكذا نقف عند هذه المعادلة:

اللّفظ = زينة المعاني + حليّة عليها.

إذا تحقّقت تلك السّمات أمكن للخطاب أن يربط المتلقي بالمبدع، إنّه يربطه بالمعنى الذي يتّخذ "زينة"، و "حلّة" عبر اللّفظ بما فيه من كناية، تعريض استعارة، تمثيل، و من ثمة فلا انفصال بين معنى الخطاب و مبناه، إنهما يتفاعلان لتحقيق الغاية التواصلية.

كانت هذه بعض الأدوار التي رأينا —حسب منظور شخصي— بأنّها تساهم في ربط المبدع بالمتلقي، و هي جميعها تدور في فلك الحديث عن خصوصيات الخطاب حسب

الرؤية الجرجانية التي تبحث في "الأعجاز" و في "النظم" و تحاور ثنائية "اللّفظ" و "المعنى".

شروط المتلقي:

قبل أن نتحدّث عن شروط المتلقي انطلاقا ممّا وجدناه في "دلائل الإعجاز"، يجدر بنا أن نذكر بأنّ الجرجاني في كتابه يعتمد أسلوبًا خاصًّا، حيث نجده يحاور، و يسائل و يحاجج، و كأنّه يتعامل مع متلقٍ يقف أمامه، و يسمع كلامه، يتجلّى هذا بخاصة في استعماله لـ "أعلم" من البداية إلى النهاية.

و من الفقرات التي وجدنا أنّها تقف عند "المتلقي" لتصفه، أو تصف مواقفه من الخطاب، أو تصف شروط تعامله الصائب مع ذلك "الخطاب"، نذكر:

1- ضرورة أن يعرف المتلقي "المواضع" التي "يحسن" فيها ما يصدر من المخاطِبَ من "كلام"، يقول الجرجاني: "إنّه لابد لكل كلام تستحسنه، و لفظ تستجيده من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة، و علّة معقولة، و أن يكون لنا إلى العبارة عن ذاك سبيل، و على صحّة ما ادّعيناه من ذلك دليل، و هو باب من العلم، إذا أنت فتحته اطّلعت منه على فوائد جليلة و معان شريفة..."[26]، إنّها فوائد التواصل الإيجابي و السليم و الفعّال.

2- على المتلقي إذا أراد أن يحيط بالأمر الذي يتلقّاه أن يعلم أن يعلم به مفصّلاً، يقول الجرجاني: "و اعلم أنّك لا تشفي العلّة و لا تنتهي إلى ثلج اليقين، حتى تتجاوز حدّ العلم بالشيء مجملاً، إلى العلم به مفصّلا، و حتى لا يقنعك إلاّ النظر في زواياه و التغلغل في مكامنه."[27]، و من ذلك أنّ الحكم على جودة الخطاب و حسن تماسكه و سبكه لا يكون إلاّ عبر "التغلغل" في أعماقه و البحث المفصّل "في

أجزائه من علاقاته التركيبية أو من حيث الصور و المعاني التي تنتج عن علاقات الألفاظ ببعضها البعض.

معرفة اللّغة: يشترط الجرجاني في "المتلقي" أو "السامع" أن يكون عارفًا باللّغة، من حيث قواعدها و أنظمتها الداخلية، يقول: "ذلك لأنّه لا يخلو السامع من أن يكون عالمًا باللّغة، و بمعاني الألفاظ التي يسمعها أو يكون جاهلاً بذلك، فإن كان لم يتصوّر أن يتفاوت حال الألفاظ معه، فيكون معنى لفظ أسرع إلى قلبه من معنى لفظ آخر، و إن كان جاهلاً كان ذلك في وصفه أبعد"[28]. فالعلم بـ "اللّغة"، و المعرفة لـ "معاني الألفاظ"، يجعل المتلقي يميّز بين الألفاظ التي تكون حاملة للمعاني السريعة الاستقرار في "القلب"، و بين الألفاظ التي تنفره أو لا تجد القبول عنده، فالأولى يجد فيها "الحسن" و "اللّطف" و "الأريحية"، و الثانية يصدم لما فيها من "القبح" و "الخشونة" و "التنافر".

4- معرفة النحو: يقول الجرجاني في سياق دعوته "المتلقي" لكي يعرف "النحو": "إذا كان قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، و أن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها و أنّه المعيار الذي لا يتبيّن نقصان كلام و رجحانه حتى يعرض عليه، و المقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه"[29]. فالإعراب يسهّل فهم "الألفاظ"، أو بالأحرى فهم "معاني الألفاظ". كما أنّه معيار/ميزان معرفة "النقص" من "الرجاء" في كلام المتكلّم، و يمكن تشكيل هذه الفكرة هكذا:

اللّفظ/المعنى

الإعراب ⟵ الوضوح

الكلام

الإعراب ⟵ النقص، أو الرجحان/الصواب

معرفة الخطأ كمن الصواب: لن يستطيع "المتلقي" معرفة الخطاب بل معرفة "الصناعات" المختلفة، إذا هو لم يميّز الخطأ من الصواب، يقول الجرجاني: "إنّك لن تعلم في شيء من الصناعات علمًا تمرّ فيه، و تجلّي، حتى تكون ممن يعرف الخطأ فيها من الصواب و يفصل الإساءة و الإحسان، بل حتى تفاضل الإحسان و الإحسان، و تعرف طبقات المحسنين"[30]. و نشكّل هذه الفكرة في هذا الشكل:

المتلقي	الصناعات/الخطاب
معرفة الخطأ/الإساءة و كذلك الصواب/الإحسان	الإحاطة/الإتقان/التلقّي الحسن
عدم المعرفة	عدم الإحاطة/عدم الإتقان/التلقّي السيئ

و يؤكّد الجرجاني هذه الفكرة في فقرة أخرى بقوله: "لابدّ لكل آلام تستحسنه، و لفظ تستجدّيه، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة و علّة معقولة"[31]. و كأنّه يبحث في الخلفيات النفسية للكتابة الأدبية.

6- يختلف "التلقي" باختلاف "المعنى" و ليس باختلاف "اللّفظ". يقول الجرجاني: "لو كان القصد بالنّظم إلى اللّفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس ثم النطق بالألفاظ على حذوها، لكان ينبغي أن لا يختلف حال اثنين في العلم بحسن النّظم. أو غير الحسن فيه، لأنّهما يحسّان بتوالي الألفاظ في النطق إحساسًا واحدًا و لا يعرف أحدهما في ذلك شيئًا يجهله الآخر"[32]. فالغاية من وراء النّظم –و هذا ما يؤكّد عليه الجرجاني دائمًا– هو ترتيب المعاني في النفس "قبل" النطق بالألفاظ على "حذوها"، لذا يختلف تلقي هذه المعاني بين المتلقي (أ) و المتلقي (ب)، و لعل التأكيد على فكرة الاختلاف يحيلنا على تعدّد القراءات في نظرية جماليات التلقّي المعاصرة.

7- حسن الانتباه: يحرص الجرجاني على أن يكون "السامع" أو "المتلقي" ناظرا – بعمق– في المعنى، و هو "النظر" الذي يكون بالقلب، و ليس يقتصر على "السماع"

بالأذن فقط يقول: إنّما (مزيّة النّظم) من حيّز المعاني دون الألفاظ، و إنّها ليست لك حيث تسمع بأذنك، بل حيث تنظر بقلبك، و تستعين بفكرك، و تعمل رؤيتك، و تراجع عقلكن و تستنجد في الجملة فهمك[33]، و نشكّل هذه الفكرة هكذا:

المتلقي/النظر بالقلب + الاستعانة بالفكر + أعمال الرؤية + مراجعة العقل.

الرسالة/النّظم = "المعاني دون اللفظ".

8- على الملتقى أن يكون متهيّئًا لإدراك و تذوّق مزايا النّظم، يقول الجرجاني: "إنّ المزايا التي تحتاج أن تعلمهم مكانها، و تصوّرهم شأنها أمر خفيّة، و معان روحانية، أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها و تحدث له علمًا بها، حتى يكون مهيّئًا لإدراكها، و تكون فيه طبيعة قابلة لها، و يكون له ذوق و قريحة يجد لهما في نفسه إحساسًا بأنّ من شأن هذه الوجوه و الفروق أن تعرض فيها المزيّة على الجملة"[34]، و يمكن تشكّل هذه الفقرة هكذا:

المزيّة في النّظم ← أمور خفيّة + معان روحانية.

مزيّة النظم

إدراك المتلقي ← التهيؤ.

الخاتمة:

تلك هي بعض ملامح التفكير في التواصل اللساني في كتاب الجرجاني ، وهي تحاور مسائا بلاغية ولغوية ، وتتفاعل مع مختلف الرؤى التي ينطلق منها المخاطب ، أو التي يدعو أليها ، وقد وجدنا الجرجاني ينتقل من اللفظ ألى المعنى ، ومن المرسل إلى

المرسا إليه ، كما يهتم بقواعد النحو وجمال القول ، بالإضافة إلى قضايا أخرى تشكل مجتمعة جوهر العملية التواصلية بين المتكلم و السامع او بين المبدع و المتلقي 0 كما يمكن ان تكون تاسيسا عربيا اوليا لمفاهيم ليسانية تواصلية تفتح الحوار المعرفي بين اللغة و الوظيفة عبر مجالات علمية يتكامل فيها البحث البلاغي و اللغوي و الادبي قصد التوطئة للنظرية اللغوية العربية0

الهامش

[1] – عبد القادر الجرجاني، دلائل الإعجاز، موفم للنشر، الجزائر 1991.

[2] – الدلائل ص55-56

[3] – الدلائل ص20

[4] – الدلائل ص10

[5] – الدلائل ص143

[6] – الدلائل ص149

[7] – الدلائل ص352

[8] – الدلائل ص361

[9] – الدلائل ص361

[10] – الدلائل ص364

[11] – الدلائل ص364

[12] – الدلائل ص364

[13] – الدلائل ص371

[14] – الدلائل ص462

[15] – الدلائل ص257

[16] – الدلائل ص307

[17] – الدلائل ص329

[18] – الدلائل ص330

[19]- الدلائل ص257

[20]- الدلائل ص279

[21]- الدلائل ص283

[22]- الدلائل ص283

[23]- الدلائل ص95

[24]- الدلائل ص49

[25]- الدلائل ص251

[26]- الدلائل ص55

[27]- الدلائل ص248

[28]- الدلائل ص256

[29]- الدلائل ص43

[30]- الدلائل ص51

[31]- الدلائل ص51

[32]- الدلائل ص66

[33]- الدلائل ص76-77

[34]- الدلائل ص474